صرخة ثائرة !

وداعًا ... أيّها الأدب !

بقلم محيي الدين صبحي

حاولت فيما مضى ان ابين للقاريء العربي العوامل غير الادبية التي تؤثر في ادب الاقليم الشمالي وتعيقه عن الازدهار ومسايرة النمو الاجتماعي ، فبينت ان تشكيل المجلس الاعلى - واخص منه لجنتي الشعر والنثر - هو تشكيل تاريخي يضم افرادا تأخروا في مفهوماتهم الادبية عن المفهومات الحديثة التي تطور اليها الشعر العربي الجديد ، وبذلك فهم ذوو تأثير رجعي .. اذا ما تدخلوا في مجرى الادب المعاصر . كما انني اوضحت كيف تتحول الجمعيات الادبية الى صالونات اجتماعية تتفق على كل شيء الا على تبني مفهوم ادبي وطرحه في انتاج مذهبي يحتفظ بالفروق الفردية ضمن نظرة موحدة .. وارى اليوم ان اختم هذه السلسلة من الدراسات بحديث يحلل العوامل الادبية التي تؤخر الادب، مازجا ذلك بذكر الظروف الشخصية التي تلعب دورا كبيرا في حث الاديب على متابعة انتاجه او انصرافه عنه.. مع اثباتي لبديهية لا يمكن فهم الحياة الادبية عندنا بدون اخذها بعين الاعتبار ، وهي ان الاجيال الادبية ، في الاقليم السوري ، متقطعة تماما فيما بينها ، وانها لا تشكل سلسلة متصلة يتمم فيها الجيل اللاحق اعمال الجيل السابق، وانما هي حلقات متقطعة يبدأ فيها كل جيل من مفهوم وتجارب خاصة به حتى ينتهي ، لسبب او لاخر ، فيحل محله جيل جديد مختلف عنه كل الاختلاف ! ولهذا نجد انعبد السلام العجيلي لا يمت بصلة الى فؤاد الشائب وان نزار قباني بعيد كل البعد عن انور العطار ، وان زكريا تامر منقطع عن حسيب الكيالي وعبد السلام العجيلي .. وهكذا

ولعل تلك البديهية تمنح ادبنا خصبا وتلوينا ، لكنها تفقده طابع الاستمرار والفهم المتعدد للتجربة الواحدة التي تواجهها مختلف الشخصيات الادبية : كل من وجهة نظر خاصة بها ، كما حدث للوجودية مثلا بين سارتر ومارسيل وكامو وغيرهم .. وواضح ان السبب الاساسي لذلك هو فقدان اتجاه واضح في ذهن اي اديب .. او عدم امهال الزمن له كي يعبر عما لديه .. هناك مثلا طلائع فهم روحي عند عبد السلام العجيلي.. ولكن ما كتبه حتى الان لا يعبر الا بشكل غامض وغير كاف عن نظرته الشرقية للانسان . ولعلانعدام المفهوم ، او عدم وضوحه ازمة يشتكي منها الفكر العربي كله .. ولكن يستحيل نشوء ادب بدون فكر .. وما دام هناك ادب فهناك اذن فكر وراءه يسيجه ويصونه من التميع .

ما هو مصدر الفكر في ادبنا ؟

ذلكم سؤال محرج .. والاجابة عنه تشعرنا بالكثير من الخجل .. ولكن ما دمنا في صدد تقرير الوقائع ، وجرد حساباتنا مع ثلاثين عاما من الانتاج الادبي ، فلنقلها صريحة : « الاستيراد هو مصدر اكثر افكار معظم كتابنا » .. انها جملة طويلة ومعقدة بعض الشيء ولكنها صحيحة تماما .. وهي شاملة من حيث التاريخ ايضا .. وهنا لن نبتعد كثيرا ، فاول جماعة حاولت ان تصدر في كتاباتها عن مفهوم واضح محدد هي « رابطة الكتاب العرب » . ومن المعلوم انها اعتنقت المفهوم الماركسي وقدمت نتاجها على اساسه ، وحصرت نفسها ضمن حدود نظرياته ، وسواء افلحت ام اخفقت في تمثيل اتجاهها ، فانه مفهوم مستورد ، غريب ، مع العلم بان اكثر هؤلاء الكتاب اعتنقوا هذا المذهب لاسباب عديدة ... ليس من بينها معاناة الكاتب للمذهب . واقصد بكلمة « معاناة » تمرس الكاتب بمذاهب فكرية عديدة بغية الوصول الى قناعة بحقيقة ما ... حتى اذا تجلت له تلك الحقيقة اصبح صاحبها ومكتشفها . انه قد اكتشفها لنفسه على الاقل ! وبذلك تصبح جزءا من كيانه وتتكهرب بلفح من حرارة قلبه واندفاعة حياته ... فاذا ما انتج اثرا ادبيا كانت الناظم الذي يسلك ضمنه كل اجزاء العمل الفني.. والا ظهرت الفكرة ملصقة بصمغ سيء على الاثر الفني وظهر التوجيه فيها واضحا واستحالت الكتابة من فن الى منشورات...

... وخلف الرابطة جيل جديد من الكتاب يجمع بينه الرفض للماركسية ثم يفترق بعد ذلك في اتجاهات عديدة ، منها ما هو مقتنع برسالة الفن في توجيه الجماهير توجيها مباشرا نحو الاشتراكية العربية، واولئك خلفوا سابقيهم في كتابة الخطب والمباديء ضمن الشعر والاقصوصة ، ومنها ما هو مقتنع برسالة الفن غير المباشرة في توجيه الجماهير ، انه يريد اولا ايقاظ وعي وجودي في ضمير القاريء ، ويريد ايضا فلسفة هذا الوعي وتحديده في سبيل توجيهه واستغلاله ، ويمثل الاتجاه الاول شريف الراس - على قلة ما يكتب - ويوسف الخطيب في بعض شعره ، كما يمثل الاتجاه الثاني مطاع صفدي فيما يسميه « القصة الاشكالية » ويدعي في مقدمة كتابه « اشباح ابطال » ان القصةالاشكالية هذه لا يمكن ان يفهمها الا قاريء اشكالي .!

ومن المعلوم ان الاشتراكية العربية ما تزال شعارا لم تحدد تخومه بعد، لهذا يكتب المتحمسون لها عن شيء يتخيلونه ولكنهم لايعلمونه حق العلم ... اما اصحاب الوعي الوجودي او ما شابه ذلك من مصطلحات فمن المعلوم لدى الجميع ان كل ذلك مستورد .. وان الذي يكتب عن بطل متوتر قرفان يعاني الغثيان .. كالذي كتب عن عمال الناجم ومصانع الفولاذ .. سواء بسواء ، كلاهما دخيل . كلاهما يستورد ازمة ويمط الواقع او يقاصه حسب مقتضيات افكاره المستوردة ونتاجه الهجين. ومن المعلوم ان الادب هو التعبير عن المطلق من خلال النسبي ، اي على الفنان ان يستطيع تحديد اطارات عمله واعطائه هويته .. فدوستويفسكي مثلا قدم الاخوة كرامازوف في ازمة بحث عن معنى الحياة ولكن ضمن ملامح محددة ونهائية لخصائص اسرة معينة في وطن معين وزمن مخصوص ايضا

... واين هي ملامح مجتمعنا في كل الكتابات السالفة الذكر ؟ واين هو العربي بين كل اولئك من ابطال وعمال وقرفانين ؟ نعم يحدد لنا الكاتب هويته بان له كذا وكذا من الصفات..ولكن هذا لا يكفي لاننا نحس بانطباع البطل بطابع هذه الصفات .. انها مجموعة ملصقة تخرج دمية لا انسانا حيا .

والقاريء حاكم متواضع .. لكنه ذكي وشديد الحساسية ، وهو يعاقب مهربي الافكار بالصمت وبالاغفال ... صحيح ان الرواج ليس مقياسا للجودة ، ولكنه دليل على التجاوب او النفور .. ولا احب ان يتهم القاريء بالسطحية لاننا اذا وافقنا على هذا الادعاء صفعنا الواقع بضربات قاسية فكل النتاج الجيد قد نفذ من السوق واعيد طبعه مرات .. والدليل على ذلك مترجمات منير البعلبكي ! فاذا تركنا المترجم واتجهنا الى المؤلف وجدنا ان « الحي اللاتيني » اعيد طبعه مرات وان كتابات العجيلي تلاقي رواجا ، اما دواوين «القباني » و « ابو ريشة » فانها ما تكاد تظهر حتى تختفي .. وارجو الا يحاجني احد بالنكهة الجنسية في تلك الكتابات لان في كتابات المتمذهبين كثيرا من أزيز السرائر .

... ولو تركنا جميع هذه الاعتبارات ، ونظرنا الى الحياة الخاصة التي يعيشها الكاتب في اقليمنا .. ـ اي كاتب ـ لوجدناها حياة رتيبة مملة فارغة . انها خالية من التجربة .. ومن المعلوم ان الحياة المليئة بالتجارب تزيد الكتابة زخما وتملأ السطور بجذور تشدها من شحوب التجريد والتخيل الى لزوجة الواقع وتعقيدات الحياة . ان الوظيفة هي السوس الذي ينخر موهبة كتابنا ورغم كل العيوب التي ذكرتها ، فقد كان بالامكان ان يزداد خصب الانتاج لولا الوظيفة .. وفؤاد الشايب ذكر ذلك عن نفسه اكثر من مرة .. واذا كان بعض الشر اهون من بعض ، فان امر الوظائف التي تستنزف حيوية ادبائنا الشبان ..هي وظيفة التعليم بما تقتضيه من تكرار وتبسيط وبما يشغل وقت المعلم من امر تصليح الوظائف وامتلاء الذهن بكتابات الناشئة من المراهقين ، ولو استعرضنا اسماء الادبا في الاقليم الشمالي لوجدنا اكثرهم كذلك : رفيق فاخوري ، عبد الباسط الصوفي ، مطاع صفدي ، محمد حيدر ، جورج سالم .. وغيرهم كثيرون منهم كاتب هذه السطور ... واذا اجتمع وقار الوظيفة بوقار التعليم ، وروتين العمل اليومي بروتينية التدريس والتصحيح .. فاقرأ السلام على امكانية القراءة والكتابة فضلا عن امكانية التجربة والتمرس بالحياة . ورغم ان وزارة الثقافة ارادت ا لتخفيف من هذه الازمة باستحداث مشروع التفرغ ، فان هذا المشروع اذا طبق ، لا يحل مشكلا بل يخلق مشاكل .. ان توفير عمل غير مرهق للاديب ، كأن يوضع موظفا في المكتبات او المراكز الثقافية او غير ذلك من الاعمال التي تضمن عدم اضطراره الى التخلي عن مستواه الفكري ، ان ذلك لافضل الف مرة من ان تطعمه الدولة لوجه الله ! ذلك افضل لانه حل وسط لايرهق الدولة ، لانها بحاجة الى موظفين يملأون تلك المراكز التي تتعلق بالثقافة ، ولانه حل يمكن ان يشمل عددا من الادباء اكثر من العدد الذي يشمله قانون التفرغ . كما انني اعتقد ان العمل الذي يتلاءم مع مزاج الاديب ولا يمتص امكانياته خير واشرف واكرم من البطالة التي يوفرها قانون التفرغ ..

ان اديبنا مرهق مضغوط مسلوب من الحياة ، يعيش في دوامة تفاهات يومية تجعله يفقد صلته تدريجيا بالناس وبالثقافة وبنفسه فيضحل انتاجه ويضؤل ثم يموت .. والدلائل على ذلك اكثر من ان تذكر .. فهذا عبد الباسط الصوفي ، بالامس كان شاعرا ملء السمع والبصر ، له في كل موسم حصاد .. ومنذ عين معاما صمت ، والقصائد التي نقرأها في الاداب من نتاج شهر قضاه في العطلة الصيفية .. وها هو الان هارب الى غينيا ، وقبله خسرنا محمد حيدر ، فقد كان منذ سنوات قصاصا منتجا ثم عين معلما فترك فن القصة الى كتابة « عرض حال » في مجلة الثقافة ، اما الابحاث التي قدمها لمجلة الاداب فهي ايضا من نتاج العطلة الصيفية .. وقبلهما استحال رفيق فاخوري من شاعر رمزي قبل التعليم الى ناظم كلاسيكي ، وما يزال في تقهقر مستمر .. اننا نتساقط ومعظمنا يتجمد او يهبط مستواه ، اي يحصل فينا بعكس مايحدث لكل ادباء العالم الذين يبدأون ثم يتحسنون .

فاذا اضفنا الى ذلك فقدان وسائل النشر وانحصار الجوائز المالية بالاغنياء الشيوخ من الكتاب ، في الشهر الماضي تناول طه حسين ألفين وخمسمائة جنيه ، جائزة الدولة للادب ، فذكرت قول برنارد شو : « ان جائزة نوبل تشبه بتقديم المعونة لغرقى الذين وصلوا الى الشاطىء » مع العلم ان الرئيس عبد الناصر حين كرم توفيق الحكيم منحه وساما ، وهذا هو المنطق والمعقول ـ اذا ذكرنا كل ذلك ادركنا كثيرا من عوامل تأخر الادب عندنا في الزمن الماضي ، واستطعنا التنبؤ بما ينتظر المستقبل الادبي من نضوب وجدب في الاقليم السوري ..

ان التدريس مهنة سامية وذات رسالة ، وان الدولة تميز المعلمين عن غيرهم في المعاملة ، ولكن هذه المهنة تريد استقرارا في الذهن وتفرغا تاما للعمل بها وتريد سرعة انتاج ولزوم حد معين من مستوى التفكير ..

وجميع ذلك يخالف مايقتضيه الادب من تأمل وهدوء وتطور في المفاهيم كما ان ملاحقة الانتاج الادبي المحلي والعالمي يتطلب وقتا يتوفر في بقية الوظائف اكثر مما يتوفر في التدريس . كما ان الطفرات الذهنية والانقطاعات الظاهرية بين فكرة واخرى ، ومحاولة الاديب تكثيف نفسه وتجديدها .. امور تخالف التبسيط والتكرار الذين هما عماد التعليم .

*

اكتب هذه السطور الاخيرة وعلى طاولتي الف ومائتا ورقة تنتظر التصحيح ، ولم اقرأ منذ اشهر سوى الجريدة اليومية .

ـ وبما انني اؤمن بان الثقافة هي الوسيلة الاولى لتطوير الاديب ،

ـ وبما انني اعتقد بصحة رأي همنغواي من « ان على الاديب ان يكتب وكأنه سوف يموت غدا » ، ولا اجد الوقت لشيء من ذاك بسبب مهنتي التي اضطرتني اسباب العيش لها .

ـ وبما انني مطلع على احوال ادباء كانوا اكثر مني ثقافة واغزر موهبة ثم تدهوروا حين مارسوا « التثقف » على اوراق الطلاب .

ـ وبما انني سمعت كثيرا من الوعود كانت نتيجتها اوضاعي الحالية .

ـ وبما انني احترم اسمي ولا اجد الجراة على الكتابة بدون علم .

فانني اودع كل ذلك العالم الحلو الذي عملت فيه ومن اجله خمس سنوات ، .. هذا العالم الذي طمعت في يوم من الايام ان اكون سادنا في معبده . وارجو الايظن احد ان هذا المقال نداء او استجداء عطف بل هو كلمة لمن سوف يتساءل ـ ولو بعد الف عام ـ : « لماذا صمت وكان في ضميره كلمة تستحق ان تقال ؟ » . انني كتبت مقالتي هذه لمثل هذاك السائل . انني اودع احسان عباس . اودع محيي الدين محمد ورجاء النقاش ... هؤلاء وغيرهم ممن هم خميرة الفكر والحرية في وطننا العربي .

فيا اخوتي ، يامن قرأت لكم وكتبت معكم ..

لن اقول : « الى اللقاء » ، بل اقول : « وداعا » .

قرية درعا — محيي الدين صبحي